

الفصل الثالث

حركات القافية

تتفق حركات القافية مع حروفها في العدد : فهي ست مثلها ، غير أنها تخالفها في الموضع : فقد أهمل علماء العرب تسمية الحروف الساكنة وجوباً كالتأسيس والردف والخروج ، والحروف التي عرض لها السكون كالروى المقيد ، واستعاضوا عنها بتسمية الحرف المتحرك قبلها . ولعل سبب ذلك أن السكون ثابت على حاله ، أما الحركة فتعددة ومتصرفة ، فتحتاج إلى حديث يجعلها أهلاً للتسمية

وهذه الحركات - إذا أتى بها الشاعر في مطلع شعره - وجب عليه التزامها فيما يتلوها من الأبيات ، تحقيقاً للتأثر الصوتي في القوافي ، وإلا سقط في مأخذ فصل العلماء الحديث عنها . وهاك بيان هذه الحركات على حسب ترتيبها في القافية ^(١) .

الرّسّ

الرّس حركة ما قبل التأسيس . وقد ذهب العلماء مذاهب شتى في تعليل هذه التسمية أشهرها مذهب ابن جني الذي قال فيه ^(٢) : سمي بذلك من قولهم : رسمتُ الشيء : ابتدأته على خفاء ، ومنه رسّ الحُمى ورسيها ، وهو قترها وأول ما يوجد منها . ومنه الرّسّ للبرّ القديمة ، سميت بذلك لتقدمها ولأنها أخفى آثار العارة . فسميت هذه الحركة رسماً ؛ لأنه اجتمع فيها الخفاء والتقدم : أما التقدم فلتقدمها على الروى ؛ إذ هي أول لوازم القافية ، وأما الخفاء فلأنها بعض حرف خفي - وهو الألف - وإذا كان الكل خفياً فالبعض أولى بالخفاء منه .

(١) يجدر في أن أشير إلى أن الشعراء العوا عند حريك الساكن من الأفعال عند وقوعه في القافية - كالفعل المضارع المحزوم والفعل الأمر - ما اعوه عند التخص من الساكنين . أعنى التحريك بالكسر .

(٢) كافى التبريري ١٥٨ لإرشاد ١٥٦ لسط ١٣٢ .

ويقرب منه قول التنوخي^(٣) : الرس : القلة والخفاء ، ومنه رسيس الهوى ، أى بقيته ، فكان حركة الرس حس خفى .

وابتعد عنها ابن السراج فقال^(٤) : الرس من الرس الذى هو الثبات ؛ لأنها ثابتة على حال واحدة . وهو قول واضح ، يبين الصلة برس القافية ، فهو فتحة واجبة لا ينوب عنها غيرها ؛ لأن التأسيس ألف ، والألف لا تلي إلا الفتحة . وقد اعتمد أبو عمر الجرمي على هذا الثبات فى إنكاره الحاجة إلى تسمية الحرف السابق على التأسيس ؛ لأن ما يحتاج إلى التسمية فى رأيه ماكثر تصرفه . ولكن غيره من العلماء لم يرض بقوله .

ومثال الرس فتحة الشين فى قول النابغة :

دَعَاكَ الهوى : واستجهلتك المَنَازِلُ وكيف تصابى المرء ، والشيبُ شاملٌ؟^(٥)
فالألف تأسيس ، والشين قبلها مفتوحة .

الحَذْوُ

الحذو حركة ماقبل الردف : ذهب التبريزي^(٦) إلى أنها سميت بذلك . « لأن الألف لا تكون إلا تابعة للفتحة أو صلة لها ومُحتدأة على جنسها ، وكذلك الواو والياء فى هذا الباب ؛ لأنها لا يكونان ردفين إلا إذا انكسر ماقبل الياء ، وانضم ماقبل الواو ، فى الأعم الأكثر » ، فالحذو عنده بمعنى الحركة التى يحتذيا الردف .
وذهب التنوخي^(٧) وابن السراج^(٨) إلى أنها سميت بذلك لأنها تماثل الحرف الذى بعدها فالحذو عندهما بمعنى الحركة التى تحتذى الردف .

والريان السابقان يثولان إلى معنى واحد ، فكلاهما صواب . وأبعد المذاهب قول من قال^(٩) : « سميت بذلك ، لأن الشاعر يحذوها - أى يتبعها - فى القوافى ؛ لتتفق الأرداف لزوماً أو رجحاناً » لأن ذلك ينطبق على كل الحروف والحركات على وجه التقريب .

(٧) ١٠١ .

(٣) ٩٨ .

(٨) ١٠٤ .

(٤) ١٠٥ .

(٥) استجهلتك : دعتك إلى الجهل والخفة . (٩) الإرشاد ١٥٦ . البسط ١٣١ .

(٦) ١٥٧ .

وغير بعيد أن تكون هذه الحركة سميت بهذا الاسم ، لأنها تحاذى الردف - أى تماثله -
لا فى الصوت وحده - كما قال التنوخى وابن السراج - بل فى الأحكام . فالحدو يخضع لما
يخضع له الردف ؛ فيجوز أن تتعاقب فيه الضمة والكسرة دون أن يعد ذلك عيباً .
وعاب العلماء أن تجتمعا كلتاها أو إحداهما والفتحة كما فى قول عمرو بن كلثوم الذى
أوردته فى الردف .

ولم يفرق العلماء بين القوافى المطلقة والمقيدة فى المعيب من تبادل الحركات غير المعرى
الذى استقيحه فى القوافى المقيدة ، قال (١٠) : « وإذا جاءوا بالضمة والكسرة مع الفتحة
فذلك عندهم عيب ، وهو من السناد ، ويجب أن يكون فى المقيد أشنع » .

ولا يجتمع الحدو والرس كما لا يجتمع التأسيس والردف ، وأمثلة للحدو بقول الشاعر :
أَصْدُقُ وَعَدَى وَالْوَعِيدَ كُلَيْهَا ولاخير فيمن لأبْرَى صادقَ القولِ
ففتحة القاف حدو ، والواو ردف .

الإشباع

الإشباع حركة الدخيل فى الروى المطلق ، سميت بذلك لأنها أشبعت الدخيل وبلغته غاية
ما يستحق من الحركة بالنسبة لأخويه التأسيس والردف الساكنين ، وخاصة أنها لا يمكن فيها
من الحذف ما يمكن فى حركة الروى وهاء الوصل اللتين بعدها ، لأنها قد تحذفان تارة وتثبتان
أخرى . قال النابغة :

كَلَيْنِي لَهْمٌ - يَا أُمَيْمَةَ - ناصبٍ وليلٍ أُنَاسِيهِ بَطِيءُ الكَوَاكِبِ (١١)

فالألف تأسيس ، والكاف دخيل ، وكسرتها إشباع .
ثم اتسع العلماء فى الإشباع ، فأطلقوه على حركة ما قبل الروى المطلق المجرد أيضاً ، مثل
قوله أيضاً :

لامرجبا بغدٍ ، ولا أهلاً به إن كان تفریقُ الأُحْبَةِ فى غَدٍ
ففتحة الغين عندهم إشباع ، والقافية غير مؤسسة .

(١٠) شرح لزوم ما لا يلزم ١ : ٢٩ .

(١١) كلى : التركيب . ناصب : مرمق .

وقد يكون الإشباع فتحة : كقول ورقاء بن زهير العبسي :
 فثَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أُضْرِبُ خَالِدًا وَيَمْنَعُهُ مِنِّي الْحَدِيدُ الْمُظَاهَرُ^(١٢)
 وقد يكون ضمة : كقول النابغة :
 سَجُودًا لَهُ غَسَّانُ يَرْجُونَ فَضْلَهُ وَتُرْكُ، وَرَهْطُ الْأَعْجَمِينَ، وَكَأْبُلُ^(١٣)
 وقد يكون كسرة : كقول لبيد :

وَكُلُّ أَنَاسِرٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دَوِيهِيَّةٌ تَصْفُرُ مِنْهَا الْأَنَامِلُ
 ولكن الكسرة غلبت على الشعر ، وندرت الضمة ، وقلت الفتحة عه ، لأن العرب
 كانوا يميلون إلى الكسر بعد الألف كما نرى في صنيعهم في المثني ، والفعل المسند إليه . وصيغة
 فَعَالُ المبنية على الكسر وغيرها . فأدى هذا إلى اختلاف طويل بين العلماء :
 فقصر المعرى الضم والفتح على القوافي المشتملة على الضمائر ، قال^(١٤) : « الغالب على
 ألفات التأسيس أن يكون مابعدهما مكسوراً ، فقد ألف فيها هذا النوع حتى صار كأنه لازم .
 وقلما توجد قصيدة مؤسسة يكون مابعد تأسيسها مضموماً أو مفتوحاً إلا أن تكون قد بُنيت على
 المضمر ، مثل قولك (رآهما) و (أتاها) كما قال :

أَلَمْ تَرَ أَنِي وَابْنُ أَسْوَدَ لَيْلَةً لَنَسْرِي إِلَى نَارَيْنِ يَبْدُو سَنَاها
 ومن عاداتهم إذا بنوا القصيدة على هذا القَرَى أن يلزموا فيها المضمر ، إلا أن يشذ شيء
 فيجىء على غير الإضمار ، أو تكون القصيدة المؤسسة التي بعد تأسيسها فتحة مبنية على كاف
 إضمار : مثل أن تبنى على (أَصَابَكَ) و (أَشَابَكَ) ونحو ذلك .

التَّوْجِيهِ

التوجيه حركة ما قبل الروى المقيد ، وقد أهمل أول من أطلق هذا الاسم عليه أن يبين
 سببه - فيما يبدو - فترك المجال فسيحاً أمام الفروض ، قال التنوخي^(١٥) : « لم يذكر أصحاب
 القوافي المتقدمون من أى شيء أخذ التوجيه . وذكر بعض المتأخرين أنه مأخوذ من توجيه

(١٢) المظاهر المضاعف ، لدى وضع طهر أحده إلى طهر لآخر .

(١٣) كابل عاصمة أفغانستان الآن ، ويريد أهلها

(١٤) شرح لزوم ما لا يلزم ١ : ١٢ . والقرى : الطراز .

(١٥) ١٠٣ .

الفرس ، وهو دون الصَّدَف الذى هو تباعد ما بين الفخذين فى تدانٍ من العرقوبين فى ميل من الرسغين ، فيكون أصل ذلك الاختلاف » .

وقال ابن السراج^(١٦) : « كأنه واجه الروى المقيد واستقبله » . ولكن هذين الرأيين لم يلقيا قبولاً عاماً ، وإنما شاع بين العلماء أنه مأخوذ من جعل الشيء ذا وجهين ، قيل^(١٧) : « سميت بذلك لما تقرر فى هذا الفن من أن الحركة قبل الساكن كالحركة عليه ، فكأن الروى موجه بها ، أى مُصَيَّرٌ ذا وجهين : ساكن ونحرك ، كالثوب الذى له وجهان : فن حيث ساكنه الحقيقى هو ساكن ، ومن حيث تحريكه المجازى بالاعتبار المذكور هو متحرك » .
وذكر الدهمورى^(١٨) أن التوجيه سمي بذلك لأن الشاعر له الحق أن يوجهه إلى أى جهة شاء من الحركات .

وقد اتفق أكثر العلماء على كون التوجيه حركة ما قبل الروى المقيد خاصة ، حتى أعلن المرزبانى :^(١٩) « ليس للمطلق توجيه » ولكن فئة قليلة شذت عن هذا الاتفاق تمثلت فى ابن كيسان الذى قال^(٢٠) : « قد يكون التوجيه فى المطلق وقد لا يكون » وإن عبد ربه الذى قال :^(٢١) « يكون مع الروى المطلق أو المقيد » ، ومن تابعها . ويبدو أن هذا رأى الأخير فيه تساهل ؛ لأن العلماء لم يسموا إلا الظواهر التى لها أحوال أو صلاحيات أو شروط متعددة ومتغيرة . وقد انطبق ذلك على ما قبل الروى المقيد فسموه التوجيه ، وما قبل الروى المطلق المؤسس فسموه الإشباع . ولم ينطبق على بقية أنواع الروى المطلق فأهملوا تسميتها .

المُجَرَّى^(٢٢)

المجرى حركة الروى المطلق ، سميت بذلك لأنها مبدأ جريان الصوت فى الوصل ، وسميت الإطلاق أيضاً ، لأن الصوت ينطلق بها ولا ينحبس .

(١٦) ١٠١ .

(١٧) كالى التبريزى ١٥٩ . الإرشاد ١٥٧ . البسط ١٣١ .

(١٨) الإرشاد ١٧٨ .

(١٩) الموشع ١٦ .

(٢٠) تلقيب ٥٤ .

(٢١) العقد ٤٩٨ .

(٢٢) بالفتح مصدر من جرى ، وبالضم مصدر من أجرى .

وأعلن الأخفش وبقيّة علماء القوافي أن الروى المقيد ليس له مجرى ؛ لأنه - بطبيعة الحال - ساكن أبداً .

ويكون المجرى فتحة أو ضمة أو كسرة ، فتلتزم في القصيدة كلها . وعابوا المعاقبة بينها ، وخاصة بين الفتحة وأختها . ولكن أمثلة منها وردت عن الشعراء القدماء ، ولاسيما بين الضمة والكسرة ، كما رأينا عند النابغة الذبياني . وقد أنكر العلماء أن يقع مثل هذا من كبار الشعراء ، وذهبوا إلى أن السبب فيه أن قائله من الشعراء كان يقف على قوافيه بالسكون مها كانت حركتها .

ولاحظ المعرى أن المعاقبة وقعت أكثر ما وقعت في الروى الموصول بحروف المد ، أما الموصول بالهاء فلم تقع فيه ، قال ^(٢٣) : « إنما يكثر الإقواء (اختلاف المجرى) إذا كان الوصل غير هاء . فأما إذا كانت الهاء بعد الروى - وكانت متحركة أو ساكنة - فإنهم يلزمون في الروى حالاً واحدة . وقد جاءت أشياء في شعر الإسلاميين على اختلاف الروى في الحركة وبعده الهاء ، كقول عمران الخارجي :

الحمد لله الذى يعفو ويشتد انتقامه

وقال فيها :

فهنالك مَجْزأةٌ بن ثَوِّرٍ كان أشجع من أُسامَة

وأشياء نحو هذا كثيرة . »

النَّفَاز

النَّفَاز حركة هاء الوصل المتحركة ، سميت بذلك لنفوذ الصوت معها إلى غاية مى الخروج . وسمّاها بعضهم النِّفاد - بالدال - وعللوا هذه التسمية بأن النِّفاد الانقضاء والتام ، وهذه الحركة تمام الحركات ، فقد وقع بها نفاذها ، أى انقضاءها وتتمامها . وقد يكون النَّفَاز فتحة أو كسرة أو ضمة ، ولم يمز أحد تعاقب واحدة منها مع أختها ، بل أنكروا علمهم بأن شيئاً منه قد ورد عن العرب .

وأُمثل للنَّفَاز بالفتح بقول بشر بن أبى خازم :

وغيرها ماغيّر الناس قلبها فباتت وحاجاتُ الفؤادِ تُصيّبها

(٢٣) شرح لزوم ما لا يلزم ١ : ٣٢ . وأسامة : الأسد .

وآخر الأمر - لاحظ العلماء أن بعض القوافي تشتمل على أكبر قدر من حروف القافية وحركاتها مثل قول الشاعر :

يوشِكُ من قَرٍّ من مَنِيَّةٍ في بعض غُرَاتِهِ يُوَافِقُهَا
فالألف تأسيس ، والفاء دخيل ، والقاف روى ، والهاء وصل ، والألف الأخيرة خروج ؛
وفتحة الواو رس ، وكسرة الفاء إشباع ، وضمة القاف مجرى ، وفتحة الهاء نفاذ .

• • •

وأقف في ختام حديثي عن الحركات عند ثلاثة حاولوا تبين ما تبعته هذه الحركات من رنين موسيقي :

أما الدكتور شكرى عياد^(٢٤) فلاحظ أن الفتحة وأختها الألف أكثر أصوات اللين شيوعاً في اللغة العربية ، وتأتي بعدهما الكسرة فالضمة . ولكن الشعر يخالف لغة الكلام ، فتفوق فيه الكسرة والضمة على الفتحة . ويعلل ذلك بأن الألف صوت لا لون له ، على حين يهتم الشاعر اهتماماً شديداً - وخاصة في قوافيه - بالقيمة الجمالية لكل صوت يستعمله ؛ تلك القيمة التي تتحدد بأشياء كثيرة ، منها : النغمة المميزة لكل صوت ، وغنى الصوت بالنغمات الثانوية (timbre) ، والإحساس الحركي المصاحب للنطق به .

وقام الدكتور عياد بتجارب إحصائية على اللزوميات وديوان البحترى ، فوجد القوافي المفتوحة تقارب نصف المضمومة أو المكسورة ، وقارن بين عدد القصائد البائية في ديوانى البحترى وأحمد شوقى - المائتات في موسيقاه بالبحترى ، على ما يقال ، فوجد في ديوان البحترى ٢٤ قصيدة مكسورة ، و ١٥ مضمومة ، و ٥ مفتوحة . ووجد في ديوان شوقى ٦ مكسورة ، و ٤ مضمومة ، و ٨ مفتوحة ؛ مما يكشف عن اختلاف بارز بين الشاعرين .

وأما الدكتور عبد الله الطيب^(٢٥) فسرّد مواضع تجتمع فيها كل حركة وحروف أو حركات أخرى فتهب لها جمالاً صوتياً أو قبحاً أكثر مما لها في ذاتها : فالفتحة تحسن في القوافي الموصولة بهاء التأنيث ، وفي الحروف الشفهية والياء واللام ، وتقبح مع الهمزة وحروف الحلق ماعدا الهاء . والضمة تحسن مع ها . وأحسن في الحركات المفردة إيماءات خاصة : الضمة والكسرة متقابلتان : فالضمة حركة تشعر بالأبهة والفخامة ، والكسرة تشعر بالركة واللين .

(٢٤) موسى الشعر ١١٢ .

(٢٥) المرشد ١ : ٧٠ - ٧٢ .

ومن تأمل الشعر العربي وجد أرقّ قصائده مكسورات الروى فى الغالب ، وأفخمها مضموماته فى الغالب .

زهير مثلاً يحميد فى مضموماته أكثر من مكسوراته ، ومعلقته ليست فيما أرى من جيده البالغ .

وامرؤ القيس يحسن فى الكسر أكثر من الفتح .

والفرزدق ميال إلى الضم ، وجريز إلى الكسر .

والمتننى إلى الضم ، والبحتري إلى الكسر .

والشعراء المعاصرون يكثرّون من الكسر لما يشعرون به فيه من لين وانكسار يلائم العواطف الرقيقة المنكسرة التى يريدون أن يعبروا عنها .

وهى مجموعة من الأحكام يطلقها إطلاقاً ، وتحتاج منه إلى أن يدعمها بمجموعة من الإحصاءات ؛ ليضمن قارئها إلى قيامها على أساس واقعى لا على الحس الوقتى السريع . وقارب الدكتور إبراهيم أنيس الدكتور عبد الله الطيب فى اتخاذه ذوقه الخاص قاعدة أقام عليها عدداً من الأحكام العامة ، التى تحاول أن تسبر الأقدار الموسيقية للأنواع المختلفة من القوافى . قال (٢٦) : « لو طلب إلينا أن نقسم القافية حسب ما فيها من كمال موسيقى إلى مراتب ، لقلنا : إن هناك مراتب تصاعدية :

١ - تبدأ بالقافية المقيدة التى يسبق رويها بحركة قصيرة [توجيه] ، ولا تلتزم هذه الحركة فى أبياتها ، وتلك هى أقصر صور القافية .

٢ - يليها تلك القافية المقيدة التى تلتزم فى أبياتها الحركة القصيرة قبل الروى [التوجيه] ، وربما كانت القافية المطلقة التى لا تلتزم فيها هذه الحركة [المجرى] فى مستوى واحد معها من الناحية الموسيقية .

٣ - يليها القافية المطلقة التى تراعى فيها الحركة القصيرة قبل الروى ، ومثلها فى مستوى واحد تلك التى يسبق رويها بواو المد وباء المد مع التناوب بينهما [المردفة] .

٤ - يليها تلك القافية التى يسبق رويها بحرف مد معين يلتزم فى كل أبيات القصيدة [المردفة بحرف واحد لا يتغير] . »